

المحاضرة التاسعة: أنموذج عن المذابح الصهيونية ضد الفلسطينيين العزل مذبحه دير ياسين أنموذجا:

واحدة من المذابح الكثيرة التي نفذتها المنظمات الصهيونية المسلحة الإرهابية ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، وقد ارتكبتها منظماتان عسكريتان صهيونيتان هما الأرغون التي كان يتزعمها مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل لاحقا، ومنظمة شتيرن ليحي التي كانت رئاسة إسحاق شامير الذي خلف بيغن في رئاسة الوزارة، وتمّ الهجوم باتفاق مسبق مع منظمة عسكرية إرهابية أخرى وهي المسماة الهاغاناه، وسقط في هذه المجزرة ما يقارب 260 فلسطينيا (مع وجود اختلافات حول العدد بين الزيادة والنقصان خاصة وأن سياسة الصهاينة هي اعتماد الزيادة من أجل التهريب والتحويل والتخويف) من سكان القرية العزل الأبرياء، وكانت المذابح عموما إحدى أهم وسائل الصهيونية للسيطرة على فلسطين تمهيدا لإعلان الوطن القومي واستمرت بعد إعلان عن دولة إسرائيل المزعومة كوسيلة للحفاظ على هذا الانجاز وتأمينه.

كانت فلسطين قبل عام 1948 تضم أكثر من 600 قرية منها قرية دير ياسين الواقعة على أطراف مدينة القدس على تل يربط بينها وبين تل أبيب، وتحديدًا تقع على ربوة عالية غربي مدينة القدس، على بعد أربعة كيلو مترات، تحيط بها مستوطنات صهيونية من ثلاث جهات، تبلغ مساحتها 1800 دونم، ووصل عدد سكانها حسب بعض الإحصائيات ألف نسمة عشية المجزرة، وكانت القدس تتعرض لضربات متتالية وتزعم مقاومة العرب البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، الذي أحرز انتصارات في موقعه لذا تارت تائرة الصهاينة من أجل كسب انتصار عسكري لإرهاب الفلسطينيين وكسر روحهم العسكرية والمعنوية.

وقرية دير ياسين التي يتكون اسمها من شقين: دير وياسين فالكلمة الأولى دير يحتمل أنها للتعبير عن دير بناه راهب، كان يسكن القرية منذ زمن بعيد حوالي القرن 12 ميلادي، لذا سميت قديما دير النصر، أما كلمة ياسين فهي نسبة إلى شيخ يدعى ياسين لا يعرف عنه الكثير، إلا أنه كان في القرية جامع يعرف باسمه احتوى على ضريحه ومقامه، ويجمع سكان القرية أن قريتهم قامت بين الدير والجامع فسميت دير ياسين إرضاء للطرفين، ولم يعرف عن سكان القرية إلا الخير وبعد قرار التقسيم الصادر عام 1947 اندلع القتال في فلسطين، وتوترت علاقات القرية مع المستوطنات المجاورة لعل نتيجة الصدمات القوية بين العرب والصهاينة داخل القدس، وكذلك في الريف المحيط بها.

ورغم أن قرية دير ياسين قد قررت التزام سياسة ضبط النفس وعدم التحرش بالمستوطنات، إلا أنها وقعت ضحية مكيدة صهيونية لم ترحم حتى الصغار في بطون أمهاتهم! وكان هدفها إلقاء الرعب في قلوب العرب لإرغامهم على ترك قراهم وديارهم، وحتى من نجا من القتل في هذه المذبحة فإنه لم ينجوا من تعريضه للذل والمهانة وربما كان الموت عنده أرحم، لأنه تمّ نقل الناجين في سيارات إلى الأحياء اليهودية من القدس حيث عرضوا أمام الصهاينة الذين رموهم بالحجارة وألقوا عليهم وابلا من الشتائم، في صورة الجيش المنتصر والأسير المكبل المهان، وكان الصهاينة قد خاضوا حربا حقيقية، إلا أن حقيقة الأمر كان مجرد سلوك لعسكري جبان اختفى وراء الظلام واختار عدم المواجهة، أما خصمه فهم أناس أغلبهم عزل وأطفال ونساء وشيوخ.

في فجر 9 أبريل 1948 دخلت قوات الأرغون الإرهابية من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قوات شتيرن المنظمة الإرهابية الصهيونية الثانية من الشمال ليقوموا بمحاصرة القرية من كل جانب باستثناء الطريق الغربي، لمفاجأة السكان وهم نائمون، ورغم ذلك تشجع السكان وأبدوا مقاومة الأبطال مما أسفر عن مصرع 4 وجرح 40 من الصهاينة وكما وصفهم الكاتب الفرنسي باتريك مير سيون نقلا عن عبد الوهاب المسيري: "إن المهاجمين لم يخوضوا مثل تلك المعارك من قبل فقد كان من الأيسر لهم إلقاء القنابل وسط الأسواق المزدهمة عن مهاجمة قرية تدافع عن نفسها... لذلك لم يستطيعوا التقدم أمام هذا التوغل."

وعن تفاصيل المجزرة المروعة التي تصفها الكثير من المصادر والمراجع، وتلتقي جميعا حول وحشيتها وخروجها عن أعرف القتال وتقاليد العسكري بل ابتعادها عن الإنسانية، ففي الأول والأخير من قام بها هم الصهاينة الإرهابيون وهذا حسبي مرادف لكل سلوك مناف للبشرية، فقد نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت الصادرة في 1972/4/4 نص تقرير كتبه مقاتل صهيوني يدعى مئير فيلبسكي وعرف فيما بعد باسم مئير باعيل ووصفته الصحيفة بأنه شاهد العيان الوحيد الذي لا ينتمي إلى منظمتي ليحي واتسل ويقول تقريره الذي يع بمثابة "وشهد شاهد منه": "خلال نيسان-أيار- عام 1948 دارت أكثر المعارك حسما حول مدينة القدس، وسالت فيها دماء كثيرة من قوات الهاجاناه والبلماخ، في معركة القسطل وفي ذروة المعارك في منطقة

القدس، انسحبت منظمتا ليحي واتسل من المعركة إلى قرية دير ياسين...وفي ليلة 8-9 نيسان 1948 عندما كانت وحدات البالماخ تقاتل في معركة القسطل اقتربت وحدات من اتسل وليحي من قرية دير ياسين وخرجت قوات اتسل من حي بيت هكيرم، وهاجمت القرية من الجنوب الشرقي، في حين هاجمتها قوات ليحي من الشمال الشرقي، وعند الفجر وصلت القوات إلى ضاحية القرية، وأرسلت وحدة ليحي في اتجاه القرية سيارة مصفحة تحمل مكبرا للصوت يدعو السكان إلى الاستسلام، واكتشف سكان قرية دير ياسين تغلغل مقاتلي ليحي واتسل في قريتهم واقتحم المهاجمون القرية، وهرب معظم السكان بأسلحتهم وبقي في القرية عدد قليل من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال، وكان الوقت ظهرًا عندما انتهت المعركة وتوقف إطلاق النار وغادر محاربو الاتسل وليحي الأماكن التي اختبئوا فيها، وبدؤوا ينفذون عملية تطهير لمنازل القرية، وأطلقوا النار على كل من شاهدوه في الطرقات والمنازل، وحدثت مجزرة مخجلة بين السكان والرجال والشيوخ والنساء والأطفال دون تمييز، بتوقيف السكان بجانب الجدران والزوايا وإطلاق النار عليهم، ولم يحاول القادة منع أعمال القتل المخجلة.

ويضيف مئير باعير في تقريره: " لقد توسلت أنا وعدد من سكان القدس إلى قادة اتسل وليحي لكي يصدروا تعليماتهم إلى جنودهم بوقف إطلاق النار على السكان، لكن عبتنا حاولنا، وفي هذه الأثناء أخرج من داخل المنازل نحو خمسة وعشرين (25) رجلا نقلوا في سيارة شحن، واقتيدوا في جولة انتصار في حي محانية يهودا وزخرون يوسف، وفي نهاية الجولة احضروا إلى مقلع للحجارة يقع بين غفعات شأؤل ودير ياسين وأطلق عليهم الرصاص بدم بارد، ثم أصعد محاربو الاتسل وليحي النساء والأطفال الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة إلى سيارة شحن، ونقلوهم إلى بوابة مندلباوم ورفض قادة ليحي واتسل الطلب الذي وجه إليهم بأن يدفن محاربوهم 254 ضحية عربية كانت مبعثرة في شوارع وأزقة وداخل منازل القرية." لقد كانت هذه شهادة أحد الصهاينة الذي رغم صهيونيته استنكرت فيه بقايا الإنسانية في صدره وحشية مذبحه دير ياسين.

أما وصف المذبحة بعد هجوم الصهاينة حسب ما جاء في موسوعة المسيري فهو كالتالي: "... ولمواجهة صمود أهل القرية استعان المهاجمون بدعم من قوات البلماخ في أحد المعسكرات بالقرب من القدس حيث قامت من جانبها بقصف القرية بمدافع الهاون لتسهيل مهمة المهاجمين، ومع حلول الظهر أصبحت القرية خالية تماما من أية مقاومة، فقررت قوات الأرغون وشنيرن والحديث نقله المسيري عن مير سيبون الكاتب الفرنسي " استخدام الأسلوب الوحيد الذي يعرفونه جيدا وهو الديناميت وهكذا استولوا على القرية عن طريق تفجيرها بيتنا بيتنا، وبعد أن انتهت المتفجرات لديهم قاموا بتنظيف المكان من آخر عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشاشة، حيث كانوا يطلقون النيران على كل من يتحرك داخل المنزل من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وأوقفوا العشرات من أهل القرية إلى الحوائط وأطلقوا النار عليهم، واستمرت أعمال القتل على مدي يومين، وقامت القوات الصهيونية بعمليات تشويه وسادية، تعذيب اعتداء، بتر أعضاء، ذبح الحوامل والمراهنة على نوع الأجنة! وألقي ب53 من الأطفال الأحياء وراء سور المدينة القديمة، واقتيد 25 من الرجال الأحياء في حافلات ليطوفوا بهم داخل القدس طواف النصر على غرار الجيوش الرومانية القديمة، ثم تم إعدامهم رميا بالرصاص وألقيت الجثث في بئر القرية وأغلق بابه بإحكام لإخفاء معالم الجريمة، وكما يقول مير سيبون: "وخلال دقائق وفي مواجهة مقاومة غير مسبوقة تحول رجال وفتيات الأرغون وشنيرن الذين كانوا شبانا ذوي مثل عليا إلى جزارين يقتلون بقسوة وبرودة ونظام مثلما كان جنود قوات النازية يفعلون." ومنعت المنظمات العسكرية الصهيونية الصليب الأحمر المدعو جاك دي رينبيه من دخول القرية لأكثر من يوم، بينما قام أفراد الهاجاناه الذين احتلوا القرية بجمع جثث أخرى في عناية وفجروها لتضليل مندوبي الهيئات الدولية، وللإبحاء بأن الضحايا لقوا حتفهم خلال صدامات مسلحة، عثر مبعوث الصليب الأحمر على الجثث التي أقيت في البئر فيما بعد.

وأكدت لاحقا تقارير الأمم المتحدة حدوث مجزرة منظمة، واعترفت حتى الأوساط الصهيونية بحدوثها رغم محاولتها في بعض المواقف تقليل عدد القتلى وإظهار العمل على أنه عمل مجموعة إرهابية غير مسؤولة لتضليل الرأي العام العالمي، وفي المؤتمر الصحفي السري الذي عقده قيادة الأرغون أعلن أن مذبحه دير ياسين تشكل بداية تنفيذ المخطط الصهيوني للاستلاء على فلسطين وشرقي الأردن، وهدفها الأكبر إخبار العرب على ترك بيوتهم، وهو ما حدث فعلا إذ أثرت المجزرة على السكان وأدت إلى هروبهم، وزاد الإعلام العربي من وطأة المجزرة بنشره تفاصيل العملية التي أثرت سلبا وشجعت الهجرة والنزوح الفلسطيني.

من نتائج المذبحة وردود الفعل تجاهها:

لقد خلفت مذبحه دير ياسين العديد من الآثار السلبية المادية والمعنوية على الفلسطينيين، وكانت في صالح الصهاينة وصالح وطنهم القومي، ومذبحه دير ياسين في حد ذاتها هي عبارة عن خطة لتهجير السكان الآمنين العزل، وإخلاء فلسطين من أهلها، وقد حققت جزءا من عملية الترحيل ومخطط إفراغ فلسطين الذي اتفقت عليه جميع التنظيمات الصهيونية في 10 مارس 1948 وعرف باسم الخطة "د" أو دالت وحسب مخطط تهجير السكان قامت القوات الصهيونية بالانتقال من الدفاع إلى الهجوم للسيطرة على المناطق المخصصة للدولة العبرية بقوة السلاح، وجرى تنفيذ المخطط بتدمير القرى الموجودة في مواقع استراتيجية، أو التي من المتوقع أن تبدي مقاومة ما، وقد عبّر بيجن عن هذا بقوله في كتابه المعنون بالثورة "إن مذبحه دير ياسين أسهمت مع غيرها من المجازر الأخرى في تفريغ البلاد من 650 ألف عربي". وأضاف قائلاً: "لولا دير ياسين لما قامت إسرائيل".

أدت مذبحه دير ياسين إلى سقوط عدد من الشهداء من النساء والرجال والأطفال مع تدمير القرية واستيلاء الصهاينة عليها، وهناك اختلاف حول عدد شهداء مذبحه دير ياسين غير أن المشهور والراسخ والمتواتر في العديد من المصادر والمراجع، أن عدد الشهداء هو في حدود 240 إلى 254 وقد يصل إلى 260 شهيدا، والرقم 240-254 هو الرقم الذي أعلنته الأطراف المعنية حينها من جهات: اليهودية والبريطانية الرسمية والفلسطينية والعربية بهذا الترتيب، وهو العدد الذي أجمع عليه الصحفيون والمؤرخون والمراقبون من مختلف الجنسيات منذ عام 1948، لكن قد يزيد الرقم في بعض المراجع كما أشرنا سابقا، كما قد يقل أيضا لأسباب مختلفة من ضمنها عدم وجود إحصاء دقيق للشهداء، أو محاولة الأطراف المتلاعب بالأرقام لأغراض ما، وربما أن الرقم الصحيح للشهداء لم يتجاوز المائة والعشرين (120) شهيدا، بالاعتماد على شهادة بعض كبار الناجين من أهالي القرية التي أجراها باحثون مهتمون بالمذبحه والشهداء، والميل إلى تضخيم الأرقام كان خطة صهيونية من أجل بث الرعب والخوف وهو أصلا المقصود من الدعاية الصهيونية على المستوى المحلي، لكن فيما يتعلق بالرأي العام العالمي تتراجع المصادر الصهيونية وحتى تتنصل من المسؤولية المباشرة للمجزرة، وهذا وجه آخر لهذه الحركة التنمر واستضعاف العزل في وقته، والتباكي والادعاء في وقته من أجل تحقيق أهدافها في احتلال فلسطين.

تم الاستيلاء على القرية ثم تسليمها للهاغاناه لاستخدامها مطارا، وبعد عام من المذبحه أقيمت عليها احتفالات علت فيها أصوات الموسيقى لتفتتح مستوطنة "غفعت شاؤول ب" مكان قرية دير ياسين، وتشتت ما بقي من السكان الأصليين لفلسطين وتوزعوا على أماكن مختلفة من العالم وفرض منطق القوي الظالم أن يتجمع في فلسطين يهود من مختلف بقاع العالم، وأن يرحل السكان الأصليين ويهجروا عنوة إلي مختلف بقاع العالم.

ومن جهتهم الصهاينة وبينهم وبين أنفسهم تفاخروا بالإنجاز، وأرسل مناحم بيجن برقية تهنئة إلى قائد الأركان المحلي قال فيها: "تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك إنهم صنعوا التاريخ في إسرائيل". لكن بعض القادة الصهاينة وتلميذ صورتهم للرأي العام العالمي حاولوا التملص من العمل الإرهابي، والتخفيف من حدته ومن مسؤوليتهم فيه، فوصف واحد من قيادات الصهيونية بالتحديد واحد من قادة الهاغاناه في القدس مذبحه دير ياسين أنها "إهانة للسلم العبري" وهاجمها حاييم وايزمان ووصفها بأنها عمل إرهابي لا يليق بالمذبحه، واعتبرت الدعاية الصهيونية مذبحه دير ياسين استثناء وليست قاعدة في سلوك الصهاينة، وأنها تمت دون تدخل من جانب القيادات الصهيونية بل هذا الأمر ضد رغبتهم، لكن الحقيقة طبعا عكس هذا فقد تمت المذبحه تحت أعين وموافقة وإشراف زعماء الصهيونية وساستها، وهذا التبرير ما هو إلا تلميع وتهرب من الرأي العام والمسؤولية الأخلاقية أمام المجتمع الدولي، وهذا جانب آخر من الشخصية اليهودية وهو الكذب والمراوغة والنفاق والتملص من المسؤولية.